طب الحروب في التراث

لا بد لي ان احدد ماذا عنيت بطب الحروب, فمفهوم الحرب العام: هو استعمال القوة بكل معطياتها بين فريقين من الناس يدعي كل فريق منهم ان الحق بجانبه. ومن ادوات القوة هي السلاح أكان ذلك بدائيا كالحجر او متطورا كالقنابل الذرية والاشعاعات وتطويراتها. وان استعمال هذا الادوات ستؤدي حتما الى اصابات الانسان بأذى, والاذى بحاجة الى علاج ولكن من الصعب جدا ان يكون هذا التعريف البسيط هو الحقيقة فطب الحروب لا يمكن ان يجزأ وينفصل عن الطب. فالطب العام هو الاصل وطب القتال او طب الحروب او الطبابة العسكرية او الخدمات الطبية العسكرية كيفما اعطيناه اسما فهو فرع او امتداد او رافد منه.

فإذا كان الطب هو الاصل كما قلنا فكيف نشأ؟ ان معرفة ذلك عسير, فكتب الباحثين في هذا المجال عديدة ومعظمهم يقول إن نشاة الطب قد وقع بالتجربة والملاحظة والفطرة والالهام ثم تتجمع المعلومات عبر الزمان ويبدأ الناس بالتعلم والتعليم, وينتقلون من الكليات الى الجزئيات ولكن عندما تندثر حضارة امة في اي سبب فإن علومها كلا او جزءا تنشأ في امة اخرى, ينسب لها العلم بعد ان يطوروها ويضيفوا اليها وهكذا هي حال الدنيا.
التأريخ يذكر لنا ثلاثة من الاطباء الذين ابتدأوا الطب بلقب كل واحد منهم بـ "هرمس"... فالاول (اي هرمس الاول) وكما ذكر في كتاب "عيون الانباء في طبقات الاطباء" لابن ابي اصيبعة, فان اسمه بالعبرية اخنوخ وبالعربية إدريس وان جده آدم. وانه اول من بنى الهياكل ومجد الله بها, واول من نظر في الطب وتكلم فيه, وانه ألف لاهل زمانه كتبا كثيرة. وجاء في قصص الانبياء (إدريس عليه السلام هو ادريس بن بارد بن مهلائيل بن قينان بن انوش بن شيت بن آدم اعطي النبوة بعد آدم وشيت وانه اول من خط بالقلم ويسمونه هرمس الهرامسه). وقيل انه ولد ببابل ونشأ بها.
وقال الله تعالى في القرآن الكريم (واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا) (مريم 56-57).
وهرمس الثاني فانه من اهل بابل بعد نمرود بن كوش وكان بارعا في علم الطب والفلسفة وكان تلميذه فيثاغورس.
وعن هرمس الثالث فيقول ابن ابي اصيبعة (فانه سكن مدينة مصر وكان بعد الطوفان, وهو صاحب كتاب الحيوانات ذوات السموم وكان طبيبا فيلسوفا وعالما بطبائع الادوية القتالة والحيوانات المؤذية وكان له تلميذا يعرف باسقليبيوس وكان مسكنه بارض الشام).
اما اسقليبيوس هذا فانه عاش تسعين سنة وامر ابنيه ان لا تخرج صناعة الطب منهما الى الغرباء. وكما جاء في الموسوعة العربية الميسرة "انه طبيب اغريقي اسطوري ابن ابولوز وكورونيس" واعتبره اليونانيون القدماء اله الطب والشفاء. وقال البعض انه بشر ولد بجزيرة قو في بحر ايجه وان الذي علمه الطب هو هرمس المصري ويقول ابن ابي اصيبعه "ورزعموا ان الله تعالى رفعه اليه وصيره في عديد الملائكة ويقال انه ادريس عليه السلام" وانه جاء قبل ابقراط بحوالي 4282 سنة.
وكيفما يكون الامر فان قسما من المؤرخين يقولون ان مبادئ الطب جاءت عن طريق الانبياء والاصفياء بما خصهم الله تعالى من التأييد الألهي.
على ايه حال فان طب الحروب هو امتداد وتطوير للمعالجات الطبية التي يقوم بها الانسان البدائي لاصابات الحوادث والمصادمات بينه وبين الحيوانات او بفعل عوامل الطبيعة او بينه وبين بني جنسه. وكما كان في الطب اول الامر فإن معالجات الاصابات في القتال كانت مستندة الى استعمال الادعية والتمائم ثم اضيف اليها النباتات ...الخ.
وان كان الاوائل قد فشلوا في معرفة زمن نشأة الطب كذلك فان نشأة طب الحروب لا يمكن تحديدها او حصرها في حقبة زمنية والعجيب لمن يقرأ كتب التأريخ وخاصة تلك التي تبحث عن معارك وقتال واحتدام القوة بين العشائر او الدول ويقرأ بالتفاصيل الدقيقة لما حدث في ايام المعارك يوما فيوما بل ساعة فساعة وما اصاب مقاتلا ما من اذى ولكن لا يوجد ذكر متى اخلي من ساحة المعركة وكيفية اخلائه والى اين وماهية الممارسات الطبية التي رافقت ذلك وعدد الاصابات ونتائج العلاجات, وينطبق ذلك عن ايام العهود السحيقة مثل ايام حضارات وادي الرافدين القديمة ووادي النيل والاغريق ومعظم اخبار حروب الحضارة العربية الاسلامية.
وبالرغم من كل هذا فهنالك دلائل على قلتها فهي ومضات تدلنا على ما كان يحدث من الممارسات الطبية اثناء احتدام المعارك والقتال.
يقول سارتون عن تأريخ الطب في كتابه "تأريخ العلم" "انها معرفة تجمعت من تجارب عملية منذ آماد بعيدة ومن التعليم بطريقة الصح والخطأ ولكن من المستحيل ان نفهم كيف وكم تكررت التجارب هذه".
ولكن لا مناص من انهم جربوا كل شيء حولهم النباتات والتراب واللعاب والرماد لعلاج الجروح والحروق والكسور والنزف ولتقليل الالام.

ولكننا نعلم ان السومريين استعملوا الات معدنية دقيقة قبل اكثر من ستة الاف سنة اي قبل الطوفان وقبل سيدنا ابراهيم عليه السلام.
كما استعملوا عقاقير منومة وعقاقير تجميل كما وجد في حجرة وفاة مكلة اور. وقد وجدت وريات نحاسية منقوش عليها نصوص طبية مما يدل على وجود اطباء مارسوا مهنة الجراحة في تلك الفترة من التأريخ.
ولعل كلما قد اكتشف في عهود التأريخ الاولى من ادوات طبية كانت قد صنفت اصلا واستعملت لمعالجة اصابات الشدة ثم طورت لاغراض عمليات الجراحة العامة.
وفي مكتبة اشور بانيبال 669 626 ق.م. عثر على اكثر من ثلاثين الف لوحة فخارية منها ثمانمائه كتبت عليها نصوص طبية وجدت في آثار مدينة نينوى.
وكذلك فان قدماء المصريين كانوا يعالجون الجروح النظيفة بالخياطة والاربطة اللاصقة والجروح الملوثة باللحم الطري والعسل والاعشاب القابضة واستعملوا الجبائر للعلاج والكسور.
وكان في مصر القديمة ثلاثة اصناف من الاطباء:

1 طائفة الاطباء الباطنيين.
2 طائفة الاطباء الجراحيين.
3 طائفة الاطباء الروحانين.

وقد ذكر في بردية إدوني سمث حالات كثيرة تدل على انها حالات قتال او معارك مثل:
حالة رقم 1 جرح بالرأس واصل للعظم.
حالة رقم 10 جرح فاغر على الحاجب واصل للعظم.
حالة رقم 40 جرح بالصدر.
حالة رقم 27 جرح فاغر بالذقن.
وكذلك في قرطاس ايبرس بحوي 27 حالة جراحية اكثرها حالات ذات علاقة بجروح الحروب والقتال.
واذا كان التشريح هو العلم الذي تستند عليه اعمال الجراحة فان اطباء بابل ومصر كانت لهم معرفة به وان قوانين حمورابي المحتوية على مواد خاصة بالطب والجراحة يدل على انهم مارسوا اعمال الجراحة بما فيها حالات الكسور وجراحة العيون.
وبالرغم من ان العهد الحديث للدولة الاشورية لم تشر المصادر الى الاطباء الذين يرافقون حملاتهم العسكرية والقتالية وكم عددهم وماهية مناصبهم, إلا ان المنحوتات التي تصور المشاهد العسكريه فيها ما يشير بوضوح بوجود اناس مهتمين بدفن القتلى وآخرين يقومون باخلاء الجرحى ومعالجتهم. ففي احداها يشاهد جندي يساعد جريحا على الانسحاب من المعركة ويحمي ظهره بترس. وكذلك لوحة تقول ان "بيل آيتي" يُعلِمُ اشور بانيبال ما يلي "نتيجة لتقدم قوة معادية لمهاجمة قواتنا قد استطعنا من صدها ودحرها فقتلنا 17 رجلا وجرحنا ستين آخرين وهرب البقية واما خسائرنا فكانت ثلاثين جريحا".
أفلا يدل ذلك على وجود صنف طبي مرافق للجيش يتولى في المؤخرة اعمال المعالجات الطبية للجرحى!!
وهناك ايضا وصفات من الطب الاشوري خاصة باصابات القتال والحروب مثلا:
عندما تكون نتيجة الضربة على المقدمة فتعالج بكذا وكذا.
اذا حدث تسمم ضربة فتعالج بالسماق والبنج والبلسم والحنة بعد مزجها بكوب.
اذا اصيب باثر ضربة على القفا فاطحن له نصف (قا) من الكتان وانشرها على جلده وهي مازالت ساخنة.
اذا مرض الرجل من ضربة على جنبه فخذ نبات قدم الغراب ذي السبعة رؤوس ونبات الكمأ والسماق وجففها واطحنها وانخلها وقد تخلط مع الدقيق الناعم- في ماء حار تعجنها وتنشرها على الجلد ولفها ما دامت حارة وسوف يشفى.
اذن فقد كان لقدماء مابين النهرين ووادي النيل ومن ثم الاغريق اطباء مختصين يمارسون الجراحة وجراحة القتال والحروب.
ففي القرن الخامس قبل الميلاد جاء ابقراط وهو يوناني ومن اشهر الاطباء الاقدمين, وفي زمنه كانت الجراحة لاتزال في معظم الاحيان عملا لا يتخصص فيه الطلاب ولا يشتغل فيها كبار الاطباء. وان كان من الموظفين في الجيوش آنذاك جراحون كما ان مؤلفات ابقراط تصف عمليات التربنة (فتح الجمجمة) وتصف ايضا الطريقة والعلاج لانخلاع مفصل الكتف والفك وكل شيء عدا استخدام المخدرات.
كما وجد في هيكل اسكلبيوس باثينا لوحة نذور نقشت عليها علبة تحتوي على مباضع ذات اشكال مختلفة كما يحتفظ متحف اثينا الصغير بعدد من الملاقط والمسابر والمباضع والقثاطر والنظارات الطبية القديمة, لاتختلف في جوهرها عن امثالها المستحدثة هذه الايام. وفي رسالة ابقراط في الطب تعليمات مفصلة لتحضير حجرة العمليات الجراحية وتنظيم ما فيها من ضوء طبيعي وصناعي وتنظيف البدين والعناية با لآت الجراحة وطريقة استخدامها وموضع المريض وكيفية تضميد الجروح وما الى ذلك.
اما عن طب القتال والحروب في ايام الجاهلية في المنطقة العربية فلا نعرف عنها إلا القليل بالرغم من ان ايام العرب اي معاركهم معروفة ومثبت تأريخها وتفاصيلها معلومة ففي يوم ذات الاثل بين قبيلة بين سليم وبني اسد

اصيب صخر بن عمرو بطعنة في جنبه والتهب الجرح وظل يعاني من الاصابة اكثر من حول فلما اقدموا (اي الاطباء) او المعالجين على معالجتها مات ولا نعرف سبب الموت هل كان من النزف ام من تسمم الدم بالعفن.
ولكننا نعلم ان شفاء اصابات القتال كانت تتم بثلاث:
1 استعمال الاعشاب يضعونها على الجرح الطري لكي يلتئم.
2 الزيوت المغلية لقطع النزيف وتعقيم الجروح.
3 ربط الجروح لايقاف تدفق الدم ومنعها من التلوث بعد ان يضعوا عليها صوفا محروقا مباشرة.
وقد اشتهر في عصر الجاهلية من الاطباء في صناعة اليد ابن ابي رومية التميمي (ويسميه ابن ابي اصيبعة بن ابي رمثة التميمي) لقب بلقمان رمانه وكان بارعا باعمال اليد والجراحة.
وكذلك الشمردل بن قباب الكعبي النجراني الذي بعد ان دخل دين الاسلام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كان يحق له ممارسة التطبيب فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : فصد العرق ومجسة الطعنة ان اضطررت وعليك بالسنا ولاتداوي احدا حتى نعرف داءه.
والحارث ابن كلده الذي تخرج من مدرسة جنديا بور الطبية ادرك الاسلام وتوفي سنة خمسين هجرية.
وفي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى قلة المعلومات عن كيفية اخلاء الجرحى وعلاجهم فنحن نعلم ان كثيرا من اصحاب وجنود الرسول قد اصيبوا باصات كثيرة ولكنهم شفوا منها بعد المعالجات الطبية والمداخلات الجراحية مثل خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف كما نعرف ان عرفجة بن سعد الذي اصيب بفقد انفه اذن له الرسول بان يصنع انفا من ذهب لان النحاس يصدأ.
وفي غزوة احد اصيب اكثر من ثلث جيش المسلمين (150 جريحا وسبعون شهيدا), بجروح مختلفة في شدتها كما اصيب الرسول صلى الله عليه وسلم بشق في شفته وكدمات في وجهه وفي شقه الايمن. وكان الذي قام بمداواته هو عقبة بن وهب بن كلده. وحين جرح عبدالله بن زياد قامت امة ام عمارة فربطت جرحه والرسول واقف وعندما جرحت ام عمارة قال الرسول صلى الله عليه وسلم "امك امك إعصب جرحها".
وبعد انتهاء غزوة احد امر الرسول صلى الله عليه وسلم ان يقر الجرحى في بيوتهم ويداونها بما تيسر بتنظيفها وغسلها بالماء الحار المغلي وتعصيبها وكيها بالنار.
واثناء احتدام المعارك كانت هناك خيم خاص باستقبال ومداواة الجرحى واشتهرت خيمة رفيدة التي كانت قد وصفتها في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة الخندق وجعلتها مقراً ومنتجعا ومشفى للمسلمين.
وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لقومه: اجعلوا الجريح في خيمة رفيدة حتى اعوده من قريب وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة (627 م) وكان يستنفر من له معرفة بالطب وخاصة من حي انمار ليعالجوا الجرحى وقد اشتهرت رفيدة بنت سعد الاسلمية الانصارية (من قبيلة اسلم احدى قبائل الخزرج) بممارسة الجراحة وعمل البد وبرعت فيها وقامت بمداواة الجرحى المسلمين في كافة غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك فعلت ام عطية الانصارية, اما نسيبة بنت كعب المازنية فكانت ايضا تحمل للمقاتلين المسلمين الماء والضماد والسويق كما كانت تقاتل الكفار بالسيف ومن الاسيات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ايضا الربيع بنت معوذ بن عفراء الانصارية. ام رميثة بنت عمر بن هاشم بن عبد المطلب وبنت الحارث. وامية بنت قيس الصلت الغفارية وأم الحارث الانصارية وحمنة بنت جحش وام زياد الاشجعية وام سليط وام سنان الاسلمية وام سليمان ملحان بن خالد وام ايمن (بركة بنت ثعلبة) وام الضحاك بنت مسعود الانصارية ومعاذه العفارية وليلى الغفارية.
وكانوا بامر من رسول الله صلى الله عليه وسلم. يغسلون الجروح بالماء المحروق.... اذن فان الكلام عن طب القتال والحروب في صدر الاسلام فيه معضلتان اساسيتنان الاولى: انه لم يكن هنالك طبابة خاصة باصابات القتال بالرغم من انه كان هناك اشخاص يقومون بتغطية الامور الصحية والطبية قبل واثناء وبعد بدء القتال.
والثانية ان اساليب التغطية لم تكن موثقة ولم يترشح منها الا القليل القليل.
فقد نجد تفاصيل كثيرة عن اختيار ساحة المعركة وعن توزيع القوات وتنظيماتها قبل المعركة, وتفاصيل اخرى عن سير المعركة واشخاصها وكيفية قتالهم وعدد القتلى والجرحى واسمائهم. ولكن يبقى مجهولا كيفية اخلاء الجرحى ووصف اصاباتهم وطريقة مداواتهم وتنظيمات الاخلاء والعناية التي تلي ذلك وفترات النقاهة ونتائج الاصابات.
ففي احدى معارك العرب الحاسمة "معركة القادسية" فنحن نعلم كم كان عدد جيش الطرفين واسماء قوادها حتى امراء الكتائب وتنظيمات الجيوش وتحركاتها وخططها العسكرية ونعرف وصف ارض المعركة وكيف بدأت ومتى التحمت الجيوش وعدد القتلى والجرحى لكلا الفريقين في ايامها الاربعة (ارمات واغواث وعماس والقادسية) ولست فعاليا لو قلت ان قراءة تفاصيل معركة القادسية فيه متعة كأنك تعيشها ساعة بساعة. ومع هذا فنحن لا نعلم عن سياق الاسناد الطبي فيها إلا ما ندر. فقد تحرك الجيش الاسلامي من منطقة العذيب بعد ان ترك فيها النساء والاطفال الذي استصحبهم المقاتلون من المدينة وترك سعد بن ابي وقاص فيها حامية بقيادة غالب بن عبدالله الليثي. وبعد ان انقضى اليوم الاول وفي صبيحة اليوم الثاني تفقد العرب ساحة المعركة فدفن العرب شهدائهم في وادي قريب من العذيب ونقلوا الجرحى لتقوم النساء بتمريضهم ومداواتهم والعناية بهم. حيث فتحن معسكرهم في منطقة العذيب التي تبعد عن الجبهة بنحو خمسة كيلو مترات. ولما كانت المساقة هذه بعيدة نسبيا

للجريح الرثيث (شديد الاصابة) فلابد ان يقف في الطريق للاستراحة واعادة تضميده وتقييم حالته وهنا يبدو لي بان معسكر النسوة لم يكن إلا ما نطلق عليه الان مستشفى ميدان وان مكان الاستراحة واعادة التضميد ما هي إلا محطة تضميد متقدمة او محطة جمع الخسائر.
ولا ندري مَن مِن المقاتلين قد تفقد ساحة المعركة أهم فصيله خاصة كالاطبة والاسيات ام كانوا من المقاتلين العاديين, وما هي الوسائل التي نقلوا الجرحى بها اي وسائل الاخلاء, حيث كان عليهم نقل حوالي 8500 شهيد في ثلاثة ايام وماذا عن الجرحى وهم اكثر من هذا بكثير؟؟
نعود الى مكان استراحة واعادة تضميد الجرحى بين ساحة المعركة ومعسكر العذيب فقد اشتهرت احداها وهي موقع نخلة بين القادسية والعذيب وقد أُرخت بابيات شعر من الجرحى احدهم جريح من بني تيم الله فقال
ألا نخلة الجرحاء يا جُرعَةُ العِدى سقتك الغوادي والغيوثُ الهواطل
وبعد انتهاء المعركة كانت النساء والصبيان من العذيب ينحدرون بعد العشاء الى ارض المعركة في اوعية الماء لسقي الجرحى ومعالجتهم واخلاءهم.
اما عن طب الحروب في ابان النهضة الاسلامية الاموية ثم العباسية والاندلسية فما ترشح منها ايضا قليل جدا ولكننا نعلم ان في تنظيم الجيوش كان الاطبة والصيادلة والبياطرة استعملوا المحامل والبغال كنقل الجرحى والمعدات وانشأوا المستشفيات. وفي اوائل القرن الرابع الهجري كان في بغداد وحدها 860 طبيبا ومنهم من هو مختص بالجند يقيم معهم اذا قام ويرافقهم في غزواتهم وحروبهم وكان للجيش العباسي مستشفيات سيارة يحملوها على الجمال والبغال (في معسكر السلطان محمود السلجوقي مستشفى يحمله 40 جملا).